ترجمة الإمام ابن قيِّم الجوزيَّة

نسبه ومولده :

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي[1] الدمشقي، ويكنى بأبي عبد الله ويلقب بشمس الدين .

ولد ابن القيم في اليوم السابع من شهر صفر سنة إحدى وتسعين وستمئة ، ونشأ في بيت علم وفضل ، وتربىٰ على حب العلم والعلماء ، فكان للبيئة التي نشأ بها أثر في توجيه حياته نحو طلب العلم ، حتى نال شرف الإمامة في هذا الدين بتفوق وجدارة .

لقد كان والده أبو بكر قيماً على مدرسة الجوزية في دمشق ، تلك المدرسة التي بناها محيي الدين ابن العلامة المشهور الحافظ عبد الرحمن الجوزي ، فسميت بالجوزية[2] نسبة إليه ، فاشتهر والد الإمام بقيم الجوزية ، ومن هنا جاءت شهرة الإمام بابن قيم الجوزيّة[3] .

---

(١) الزرعي : نسبة إلى زُرع (بضم الزاي) ، وهي قرية من قرى حوران ، تسمى اليوم إزرع ، تقع في جنوب سورية .

(٢) وهي تقع اليوم في سوق البزورية (سوق القمح قديماً) بجانب قصر العظم ، وقد احترقت أيام الثورة السورية ، وقد قامت جمعية الإسعاف الخيري بدمشق بهدمها وبنائها من جديد ، حيث حولتها إلى مصلًى صغير تقام فيه الصلوات الخمس فقط ، وألحقت به حوانيت تجارية لتكون أوقافاً للمسجد .

(٣) يخطىء كثير من الناس فيقول : (ابن القيم الجوزي) ، كما أدى ببعضهم هذا الخطأ في التسمية حتى نسب للإمام ابن القيم كتاب (دفع شبهة التشبيه) وهو كتاب من تأليف الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي ، وهناك عالم ثالث يقال له : ابن القيم المصري وهو بهاء الدين علي بن عيسى بن سليمان الثعالبي المصري ـ محدث كبير ـ توفي بمصر سنة (٧١٠هـ)، أما ابن الجوزي فهو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي توفي ببغداد سنة ٥٧٩هـ.

مشـايخه الذيـن أخـذ عنهـم :

تتلمذ الإمام على كوكبة من أهل العلم والفضل ، فأخذ من علومهم ، ونهل من معارفهم ، وتأثر بهم ، فمن شيوخه مثلاً : ابن عبد الدائم ، وعيسى المطعِّم ، والقاضي تقي الدين بن سليمان ، وابن الشيرازي ، والشهاب النابلسي ، وإسماعيل بن مكتوم ، وفاطمة بنت جوهر ، والمجـد التـونسـي ، وابـن أبـي الفتـح البعلـي ، والصفـي الهنـدي ، وأبو النصر ، والمجد الحراني ، فتلقى عنهم العلوم الشرعية بأنواعها من تفسير ، وحديث ، وفقه ، وأصول ، وتجويد . . الخ ، كما تلقى علم الفرائض عن والده الذي كان له باع طويل فيه .

فمشايخه الذين أخذ عنهم كثيرون كما ترى ، لكنَّ أمنَّهم عليه يداً ، وأعظمهم منزلة في قلبه ، وأقربهم إلى نفسه هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية قدَّس الله سرَّه العزيز ، فقد تأثر به ابن القيم تأثراً كبيراً حتى صار لا يُذْكر ابن تيمية إلا ويذكر معه ابن القيم ، فقد تلقى علم ابن تيمية واقتنع به ونشره ودعا إليه وجادل عنه وحامى عنه ، وقد كان أخص ما نشره ودعا إليه فقهه ، فقد ناصر آراءه في الطلاق ، وحرَّر العبارات في فتاويه ، وجمع الكثير من أصوله ، وكتاباه (إعلام الموقعين ، وزاد المعاد) و غيرهما قد أخذ فيهما من تلك التركة المثرية التي تركها ابن تيمية في الفقه .

وكان مع ما تلقاه عن شيخه من روح قوية وآراء حرَّة واتجاه سلفي ، قد برع في علوم متعددة .

وتلقيه عن ابن تيمية كان بعد أن عاد الشيخ من مصر سنة ٧١٢ هـ ، فإنه كان قبل ذلك لم ينضج بعد ، وإذا كان جلّ عمل ابن تيمية في تلك المدة في الفقه والفتاوى ، وتأكيد ما قرره من قبل في العقائد ، فأخذ فقهه وتلقى منهاجه ولازمه .

قال في ذلك ابن كثير رفيقه في التلمذة على ابن تيمية وصاحب التاريخ :

(لما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة اثنتي عشرة وسبعمئة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علماً جمّاً ، مع ما سلف من الاشتغال ، فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً وكثرة الابتهال) .

لقد كان ابن القيم القائم على تركة شيخه من بعده من حيث التحرير والتأليف والمجادلة والمناظرة ، ومن الجدير بالذكر أن ابن القيم أصغر من ابن تيمية بنحو ثلاثين عاماً ، فكان ابن تيمية منه بمنزلة الوالد الشفيق [1] .

وقال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني :

(لو لم يكن للشيخ تقي الدين ابن تيمية من المناقب إلا تلميذه الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف ، لكان غاية في الدلالة على عظمة منزلته) .

فضله وأخلاقه :

لقد كان الإمام ابن القيم رحمه الله عالماً عاملاً محباً لله ولرسوله ﷺ لا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان هادىء الطبع ، قوي الخُلُق ، وَصَفَه ابن كثير الذي كان صديقاً له بقوله :

(كان حسن القراءة والخُلُق ، كثير التودد ، لا يحسد أحداً ، ولا يؤذيه ، ولا يستغيبه ، ولا يحقد على أحد ، وكنت من أصحب الناس له ، وأحب الناس إليه ، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر

---

(١) كتاب [ابن تيمية] تأليف الإمام محمد أبو زهرة ص ٥٢٦ .

عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً ، ويمدُّ ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله)[1] .

ذهب إلى بيت الله الحرام مرَّات كثيرة حاجَّاً إليه تعالى ، وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدة العبادة وكثرة الطواف الشيء العجيب .

لقد كان رحمه الله ذا عبادة وتهجد ، لهج بالذكر ، شغف بالمحبة والافتقار إلى الله تعالى ، وقد كان رحمه الله مهتماً بأمراض القلوب مؤكداً على معالجتها واستئصال هذه الأمراض القلبية بالمجاهدة و الرياضة الروحية ، وكثرة ذكر الله تعالى ومراقبته والتوكل عليه والإنابة إليه ومحبته ومحبة أحبابه وأوليائه ، ليكون القلب سليماً يوم القيامة ، كما وصف الله تعالى ذلك في القرآن الكريم فقال : ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[2] والذي يقرأ مؤلفات الإمام ابن القيم يلاحظ هذا المنزع لديه ، فقد أودع ذلك في بعض كتبه من أمثال كتاب : (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين) ففيه من علم الحقيقة والشريعة الشيء الكثير .

هذا الاتجاه الذي سلكه ابن القيم جعل بعض العلماء والباحثين يعدُّونه من الصوفية .

قال عنه تلميذه ابن رجب :

(كان رحمه الله ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتأله ولهج بالذكر وشغف بالمحبة والإنابة والافتقار إلى الله

---

(١) تاريخ ابن كثير ١٤/ ٢٣٤ .
(٢) سورة الشعراء : الآية ٨٩ .

تعالى ، والانكسار له والاطّراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك).

لقد كانت السِّمة البارزة فيه رحمه الله هي التواضع لإخوانه المؤمنين مع مالَهُ من علم غزير وحجة قوية ، فكان يرى نفسه مقصِّراً مذنباً ، وأن علمه هذا سيكون حجة عليه إن لم يتداركه الله برحمة منه وفضل ، وحول هذا المعنى له أبيات يقول فيها :

بنـي أبـي بكـر كثيـرٌ ذنـوبُـهُ ... فليس على من نال من عرضه إثمُ
بنـي أبـي بكـر غـدا متصـدِّراً ... يُعَلِّمُ علماً وهـو ليس لـه علـمُ
بنـي أبـي بكـر جهـولٌ بنفسـه ... جهـولٌ بـأمـر الله أنّـى لـه العلـمُ
بنـي أبـي بكـر يـرومُ تـرقّيـاً ... إلى جنة المأوى وليس له عزمُ
بني أبـي بكـر لقـد خـاب سعيُـهُ ... إذا لم يكن في الصالحات له سهْمُ
بنـي أبـي بكـر كمـا قـال ربُّـهُ ... هلوعٌ كنودٌ وَصْفُهُ الجهلُ والظلمُ
بنـي أبـي بكـر وأمثـالـه غـدت ... بفتـواهـم هـذي الخليقـة تـأتـمُ
وليس لهم في العلم باعٌ ولا التقى ... ولا الزهد والدنيا لديهم هي الهمُّ
بنـي أبـي بكـر غـدا متمنّيـاً ... وصال المعالي والذنوب له همُّ [1]

عـلمه وحجتـه :

يقول ابن رجب عن شيخه الإمام ابن القيم :

(تفقه في المذهب وبرع وأفتى ، ولازم الشيخ تقي الدين ، وأخذ عنه وتفنن في علوم الإسلام ، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين وإليه فيه المنتهى ، وبالحديث ومعانيه ، وفقهه ودقائق الاستنباط منه لا يلحق في ذلك ، وبالفقه وأصوله والعربية وله فيها اليد الطولى ، وبعلم الكلام وغير ذلك ، وعالماً بعلم السلوك وكلام أهل

---

(١) انظر الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر ٣/ ٤٠٢ .

التصوف وإشاراتهم ومتونه وبعض رجاله).

(ما رأيت أوسع منه علماً ولا أعرف بمعاني القرآن والحديث والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو بالمعصوم ، ولكن لم أر في معناه مثله).

وقال عنه القاضي برهان الدين الزرعي :

(ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه).

تولَّى رحمه الله الإمامة في الجوزية ، كما تولى التدريس في الصدرية [1] ، وكتب بخطه من المؤلفات مالا يوصف ، وصنَّف تصانيف كثيرة جداً في أنواع العلوم ، وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ومطالعته وتصنيفه واقتناء الكتب ، واقتنى من الكتب مالم يحصل لغيره ، حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهراً طويلاً سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم .

تلامذته الذين أخذوا عنه :

لقد تتلمذ على الإمام ابن القيم خلق كثير ، وخرج من تحت يديه علماء أفذاذ ، من أمثال الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن رجب صاحب طبقات الحنابلة ، وشمس الدين محمد بن عبد القادر النابلسي صاحب مختصر طبقات الحنابلة لأبي يعلى ، ومنهم ابن كثير صاحب البداية والنهاية الذي شهد له وقال فيه :

(كان حسن القراءة والخلق ، كثير التودد ، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه).

وابن عبد الهادي الذي قال فيه ابن رجب :

---

(١) الصدرية : مدرسة بدرب يقال له : (درب ريحان) ، وقد محيت آثارها وأصبحت دوراً .

(أخذ عنه العلم خلق كثير ، وكان الفضلاء يعظمونه ويتتلمذون عليه كابن عبد الهادي وغيره).

ومن أولاده الذين أخذوا عنه الحافظ إبراهيم وعبد الله الذي تولى التدريس بالصدرية بعد وفاة والده الإمام .

محنته التي تعرَّض لها :

لا بد أن يمتحن الله أولياءه وأصفياءه ، ليرى صدق إيمانهم ، فهذه سنة الله في خلقه ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[1] .

قال رسول الله ﷺ :

« أشدُّ الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ».

فكان لا بدَّ من أن يُظْهِرَ الله إخلاص وصدق الإمام ، فكانت المحنة ، وكان الابتلاء ، حيث اضطهد مع شيخه ابن تيمية وأوذي وحبس ثلاث مرات ، مرة مع ابن تيمية في قلعة دمشق ، وكان في مدة سجنه منفرداً عن شيخ الإسلام في مكان خاص به ، ولم يُفَرَّج عنه إلا بعد وفاة ابن تيمية ، وحبس مرة ثانية بسبب فتاوى ابن تيمية ، ومرة ثالثة لإنكاره شدَّ الرحال لزيارة قبر المصطفى ﷺ[2] .

وكان رحمه الله في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن وتدبره والتفكر في معانيه ، ففتح عليه من ذلك خير كثير ، وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة ، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦٢ .

(٢) انظر تفصيلات المحنة التي عاشها الإمام ابن القيم مع شيخه ابن تيمية في كتاب : (محبة الله والحب بين العبد والرب) لشيخ الإسلام ابن تيمية من تحقيق عبد الله بدران وعبد الرحيم برمو عند الترجمة للمؤلف ص ١٦ .

أهل المعارف ، والخوض في غوامضهم ، وتصانيفه ممتلئة بذلك كما أشرنا سابقاً .

مؤلفـاته وتصـانيفـه :

لقد ترك ابن القيم ثروة علمية كبيرة ، كان فيها خلاصة علم شيخه ، وزاد فيها ثمرات دراسته ، وتضمنت نوع اتجاهاته .

ولم تكن كتاباته في حومة الجدل كأكثر كتابات شيخه ، بل كانت كتاباته في هدأة واطمئنان ، ولذلك جاءت هادئة وإن كانت عميقة الفكرة ، قوية المنحى ، شديدة المنزع ، وكانت حسنة الترتيب ، منسقة التبويب ، متساوقة الأفكار ، طلية العبارة ، لأنه كتبها في اطمئنان ، وتجمع كتابته جمعاً متناسباً بين عمق التفكير وبعد غوره ، ونصوع العبارة ، وحسن استقامة الأسلوب ، من غير ضجَّة ألفاظ ، كما اشتملت كتاباته على نور السلف وحكمة السابقين ، فهو كثير الاستشهاد بأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، وإن كان في ذلك دون شيخه ، لكن على أي حال نزح من معينه ، واستقى من العين الثرَّة التي فتحها هو وغيره .

وإليك شيئاً من تآليفه وتصانيفه :

١ ـ تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته ، والكلام على مافيه من الأحاديث المعلولة . (مجلد).

٢ ـ سفر الهجرتين وباب السعادتين . (مجلد ضخم).

٣ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . (مجلدان) وهو شرح منازل السائرين لشيخ الإسلام الأنصاري .

٤ ـ عقد محكم الأحقاء بين الكلم الطيب والعمل الصالح المرفوع إلى رب السماء . (مجلد ضخم).

٥ ـ شرح أسماء الكتاب العزيز . (مجلد).

٦ ـ زاد المسافرين إلى منازل السعداء في هدي خاتم الأنبياء . (مجلد).
٧ ـ زاد المعاد في هدي خير العباد . (أربعة مجلدات).
٨ ـ حل الأفهام في ذكر الصلاة والسلام على خير الأنام .
٩ ـ بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل . (مجلد).
١٠ ـ نقد المنقول والمحك المميز بين المردود والمقبول . (مجلد).
١١ ـ إعلام الموقعين عن رب العالمين . (مجلد).
١٢ ـ بدائع الفوائد . (مجلدان).
١٣ ـ الشافية الكافية في الانتصار للفرقة الناجية ، وهي القصيدة النونية في السنة . (مجلد).
١٤ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة . (مجلدان).
١٥ ـ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح .
١٦ ـ نزهة المشتاقين وروضة المحبين . (مجلد).
١٧ ـ الداء والدواء . (مجلد).
١٨ ـ تحفة المودود في أحكام المولود . (مجلد)
١٩ ـ مفتاح دار السعادة . (مجلد ضخم).
٢٠ ـ اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو الفرقة الجهمية . (مجلد).
٢١ ـ مصايد الشيطان . (مجلد).
٢٢ ـ الطرق الحكمية . (مجلد).
٢٣ ـ رفع اليدين في الصلاة . (مجلد).
٢٤ ـ نكاح المحرم . (مجلد).
٢٥ ـ تفضيل مكة على المدينة . (مجلد).
٢٦ ـ فضل العلم . (مجلد).
٢٧ ـ عدة الصابرين . (مجلد).
٢٨ ـ كتاب الكبائر . (مجلد).
٢٩ ـ حكم تارك الصلاة . (مجلد).

٣٠ ـ نور المؤمن وحياته . (مجلد) .
٣١ ـ حكم إغمام هلال رمضان . (مجلد) .
٣٢ ـ التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير . (مجلد) .
٣٣ ـ إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان . (مجلد) .
٣٤ ـ إغاثة اللهفان في طلاق الغضبان . (مجلد) .
٣٥ ـ جوابات عابدي الصلبان وأن ماهم عليه دين الشيطان . (مجلد) .
٣٦ ـ بطلان الكيمياء من أربعين وجهاً . (مجلد) .
٣٧ ـ الروح . (مجلد) .
٣٨ ـ الفرق بين الخلة والمحبة ومناظرة الخليل لقومه . (مجلد) .
٣٩ ـ الكلام الطيب والعمل الصالح . (مجلد) .
٤٠ ـ الفتح القدسي والتحفة المكية .
٤١ ـ كتاب أمثال القرآن .
٤٢ ـ شرح الأسماء الحسنى .
٤٣ ـ أيمان القرآن .
٤٤ ـ المسائل الطرابلسية . (مجلدان) .
٤٥ ـ الصراط المستقيم في أحكام أهل الجحيم . (مجلدان) .
٤٦ ـ كتاب الطاعون . (مجلد) .
وغير ذلك .

انتقاله إلى الرفيق الأعلى :

توفي رحمه الله وقت العشاء الآخرة في الثالث عشر من شهر رجب سنة ٧٥١ هـ ، وصلي عليه بجامع بني أمية الكبير بدمشق ، عقيب صلاة الظهر ، ثم صُلي عليه ثانية في جامع جرَّاح [١] ، ودفن بمقبرة الباب

---

(١) جامع جراح : خارج تربة الباب الصغير ، وهو معروف إلى اليوم ، وكان من قبل مسجداً للجنائز .

الصغير بدمشق ، وقبره معروف هناك .

وكان قد رأى قبل موته بمدة شيخه تقي الدين في النوم ، وسأله عن منزلته ، فأشار إلى علوها فوق بعض الأكابر ، ثم قال له : وأنت كدت تلحق بنا ، ولكن أنت الآن في طبقة ابن خزيمة رحمه الله [1] .

* * *

---

(١) للتوسع في ترجمته ، انظر الكتب التالية :
ذيل طبقات الحنابلة : ٢/٤٤٧ ، ابن رجب الحنبلي .
البداية والنهاية : ١٤/٢٣٤ ، ابن كثير .
الدرر الكامنة : ٤/٢١ ، ابن حجر .
الوافي بالوفيات : ٢/ ٢٧٠ ، الصفدي .
شذرات الذهب : ٦/١٦٨ ، ابن العماد الحنبلي .
الرد الوافر : ابن ناصر الدين الدمشقي ٦٨ .
بغية الوعاة : السيوطي ١/ ٦٢ .
النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي ١٠/٢٤٩ .
البدر الطالع : الشوكاني ٢/ ١٤٣ .
جلاء العينين في محاكمة الأحمدين : ابن الآلوسي ص ٣٠ .
ابن القيم : مسلم الغنيمي .

التوبة والإنابة
من كتاب مدارج السالكين بين منازل
إياك نعبد وإياك نستعين

للإمام العلامة ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة (٧٥١ هـ)

مقام التوبة :

منزل التوبة أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال فيه إلى الممات ، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به ، واستصحبه معه ونزل به .

فالتوبة هي بداية العبد ونهايته ، وحاجته إليها في النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

وهذه الآية في سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالترجي ، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون ، جعلنا الله منهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٢) .

فقسم العباد إلى تائب وظالم ، وما ثَمَّ قسم ثالث ألبتة ، وأوقع اسم (الظالم) على من لم يتب ، ولا أظلم منه ، لجهله بربه وبحقه ، وبعيب نفسه وآفات أعماله ، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال : « يا أيُّها الناسُ توبوا إلى الله ، فوالله إني لأتوبُ إليهِ في اليوم أكثر من سبعين مرةً » (٣) .

---

(١) سورة النور : ٣١ .

(٢) سوره الحجرات : ١١ .
ونص الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ .

(٣) رواه البخاري (١١/٨٥) في الدعوات : باب استغفار النبي ﷺ ، عن أبي اليمان ، عن شعيب ، عن الزهري ، عن أبي سلمة . =

وكان أصحابه يَعدُّون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم « رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور، مئة مرة » [1].

وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلى آخرها ، إلا قال فيها: « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي » [2].

وصحّ عنه ﷺ أنه قال : « لن ينجي أحداً منكم عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » [3] فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه ،

= ورواه البغوي في شرح السنة (١٢٨٥) عن معمر ، عن الزهري ، عن أبي سلمة رضي الله عنه ، ورواه الترمذي (٣٢٥٥) ، وابن حبان (٢٤٥٦).

(١) رواه أبو داود (١٥١٦) ، وابن ماجه (٣٨١٤) ، والترمذي (٣٤٣٠) ، وأحمد في المسند (٢/ ٢١) والبغوي في شرح السنة (١٢٨٩) من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٥٨)، وقال عنه البغوي : إسناده حسن صحيح .

(٢) رواه البخاري (٨/ ٥٦٤) في التفسير ، باب تفسير سورة إذا جاء نصر الله والفتح ، وفي صفة الصلاة وفي المغازي .
ورواه مسلم (٤٨٤) في الصلاة ، كلاهما عن عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه البخاري في المرضى (١٠/ ١٠٩) ، وفي الرقاق (١١/ ٢٥٢) ومسلم رقم (٢٨١٦) في صفات المنافقين . والنسائي (٨/ ١٢١) في الإيمان، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه.
ورواه أحمد (٣/ ٣٦٢) عن عبد العزيز بن مسلم عن الأعمش عن أبي صالح، عن جابر رضي الله عنه . ورواه أيضاً (٣/ ٣٣٧) من طريق الأعمش ، عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه ، ولمسلم (٢٨١٧) رواية عن طريق أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه .
كما رواه أحمد (٢/ ٤٩٥) من طريق أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه . =

وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية ، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها .

حقيقة التوبة :

ولما كانت التوبة هي رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين ، وذلك لا يحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم ، ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده ، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام ، وتضمنتها أبلغ تضمين ، فمن أعطى الفاتحة حقها ـ علماً وشهوداً وحالاً ومعرفة ـ علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح ، فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ، ولا مع الإصرار عليها ، فإن الأول جهل ينافي معرفة الهدى ، والثاني غيٌّ ينافي قصده وإرادته ، فلذلك لا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب ، والاعتراف به ، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولاً وآخراً .

قال في المنازل : (وهي أن تنظر في الذنب إلى ثلاثة أشياء : إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه ، وفرحك عند الظفر به ، وقعودك على الإصرار عن تداركه مع تيقنك نظر الحق إليك) .

يحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة : انخلاعه عن اعتصامه بالله ، فإنه لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبداً ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠١ .

(٢) سورة الحج : ٧٨ .

أي متى اعتصمتم به تولاكم ، ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان ، وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد ، وعداوتهما أضرّ من عداوة العدو الخارج ، فالنصر على هذا العدو أهم ، والعبد إليه أحوج ، وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله .

ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة الله له ، وأنك إنما ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من توبة عصمته لك ، فمتى عرف هذا الانخلاع وعظم خطره عنده ، واشتدت عليه مفارقته ، وعلم أن الهُلك كل الهلك بُعْده ، وهو حقيقة الخذلان ، فما خلّى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك ، وخلى بينك وبين نفسك ، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلاً .

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان : أن يكلك الله إلى نفسك ، ويخلي بينك وبينها ، والتوفيق : ألاَّ يكلك الله إلى نفسك ، وله سبحانه في هذه التخلية ـ بينك وبين الذنب وخذلانه حتى واقعته ـ حكم وأسرار وعلى الاحتمالين فترجع التوبة إلى اعتصامك به وعصمته لك .

أما قوله : (وفرحك عند الظفر به) .

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها ، والجهل بقدر من عصاه ، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها ، ففرحه بها غطّى عليه ذلك كله ، وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها ، والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً ، ولا يكمل بها فرحه ، بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ، ولكن سُكر الشهوة يحجبه عن الشعور به ، ومتى خلي قلبه من هذا الحزن ، واشتدت غبطته وسروره ، فليتَّهم إيمانه وليَبْكِ على موت قلبه، فإنه لو كان حيّاً لأحزنه ارتكابه للذنب، وغاظه وصعب عليه ، ولا يحسّ القلب بذلك ، فحيث لم يحسَّ به فما لجرح بميت إيلام .

وهذه النكتة في الذنب قلّ من يهتدي إليها أو ينتبه لها ، وهي موضع

تخوف جداً ، مترامٍ إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة ، وندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره ، وتشمير للجدّ في استدراكه .

وأما قوله : (وقعودك على الإصرار عن تداركه) .

الإصرار : هو الاستقرار على المخالفة ، والعزم على المعاودة ، وذلك ذنب آخر لعله أعظم من الذنب الأول بكثير ، وهذا من عقوبة الذنب : أنه يوجب ذنباً أكبر منه ، ثم الثاني كذلك ، ثم الثالث كذلك ، حتى يستحكم الهلاك ار على المعصية معصية أخرى ، والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها ، وطمأنينة إليها ، وذلك علامة الهلاك ، وأشد من هذا كله : المجاهرة بالذنب ، مع تيقن نظر الرب ـ جل جلاله ـ من فوق عرشه إليه ، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم ، وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليه فكفر ، وانسلاخ من الإسلام بالكلية ، فهو دائر بين الأمرين : بين قلة الحياء ، ومجاهرة نظر الله إليه ، وبين الكفر والانسلاخ من الدين ، فلذلك يشترط في صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظراً ـ ولا يزال ـ إليه مطلقاً عليه ، يراه جَهرة عند مواقعة الذنب ، لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم ، إلا أن يكون كافراً بنظر الله إليه جاحداً له ، فتوبته دخوله في الإسلام ، وإقراره بصفات الرب جل جلاله [1] .

---

(١) حقيقة التوبة : الرجوع إلى الله ، ولا يصح الرجوع ويتم إلا بمعرفة الرب بأسمائه وصفاته وآثارها في نفسه وفي الآفاق ، ومعرفة أنه كان فاراً من ربه ، أسيراً في قبضة عدوه ، وأنه ما وقع في مخالب عدوه إلا بسبب جهله بربه ، وجرأته عليه ، فلا بد أن يعرف كيف جهل ؟ ومتى جهل ؟ وكيف وقع أسيراً ؟ ومتى وقع ؟ ويؤمن أن التوبة إنما هي عملية شاقة بمجهود كبير ، ويقظة تامة للتخلص من العدو والرجوع والفرار إلى ربه الرحمن الرحيم ، والعود من طريق الهلاك الذي أخذه عدوه إليه ومعرفة مقدار =

شـروط التـوبــة :

قال : (وشروط التوبة ثلاثة : الندم ، والإقلاع ، والاعتذار).

فحقيقة التوبة : هي الندم على ما سلف منه في الماضي ، والإقلاع عنه في الحال ، والعزم على ألاَّ يعاوده في المستقبل .

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة ، فإنه في ذلك الوقت يندم ، ويقلع ، ويعزم ، فحينئذٍ يرجع إلى العبودية التي خلق لها ، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة ، ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له ، فأما الندم : فإنه لا تتحقق التوبة إلا به ، وإذ لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به ، وإصراره عليه ، وفي المسند: « الندم توبة » [1].

وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

وأما الاعتذار : ففيه إشكال ، فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار ، فإن الاعتذار محاجة عند الجناية ، وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف ، وفي ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عتب عليه في شيء :

= الخطوات التي بعد بها عن ربه ، والمجهود والعقبات التي لا بد من الحرص على اقتحامها للعود إلى صراط الله المستقيم .

(١) رواه أحمد في المسند (١/٣٧٦ ـ ٤٢٤ ـ ٤٣٣) ، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/٢٤٣) وقال: صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، ورواه البغوي في شرح السنة (١٣٠٧) عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٢) عن ابن مسعود من طريق زياد بن أبي مريم ، عن ابن معقل . ورواه البيهقي في الآداب (١٠٢٣) بالإسناد نفسه.
وروي عن عبد الله بن مسعود موقوفاً ، قال : الندم توبة ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

وما قابلت عتبك باعتذار ولكني أقول كما تقول
وأطرق باب عفوك بانكسار ويحكم بيننا الخُلُقُ الجميل

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره ، وأزال عتبه عليه ، فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون في قلبه ولسانه : اللهم لا براءة لي من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لي فأنتصر ، ولكني مذنب مستغفر ، اللهم لا عذر لي ، وإنما هو محض جنايتي ، فإن عفوت وإلا فالحق لك .

والذي ظهر لي من كلام صاحب المنازل : أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة وغلبة العدو ، وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك ،ولا جهلاً به ، ولا إنكاراً لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك ، وإنما كان من غلبة الهوى ، وضعف القوة عن مقا مة مرض الشهوة ، وطمعاً في مغفرتك واتكالاً على عفوك ، وحسن ظنٍ بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعاً في سعة حلمك ورحمتك ، وغرّني بك الغرور ، والنفس الأمارة بالسوء ، وسترك المرخيُّ عليّ ، وأعانني جهلي ، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك ، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك ، ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل الافتقار ، الاعتراف بالعجز ، والإقرار بالعبودية .

فهذا من تمام التوبة ، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل ، والله يحب من عبده أن يتملق [1] له ، وفي الصحيح : « لا أحد أحبُّ إليه العذرُ من الله » [2] .

---

(١) المتملقون : المتوددون لله سبحانه وتعالى .
والأصل : مَلِقَ فلان لفلان : تودد له .

(٢) نص الحديث :
قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير =

وإن كان معنى ذلك الإعذار ، كما قال في آخر الحديث : « من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » وقال تعالى :

﴿ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴾ (١).

فإنه من تمام عدله وإحسانه : أن أعذر إلى عباده ، وألاَّ يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجّة عليه ، فهو أيضاً يحبّ من عبده أن يعتذر إليه ، ويتنصل(٢) إليه من ذنبه ، وفي الحديث : « من اعتذر إلى الله قبل الله عذره »(٣) فهذا هو الاعتذار المحمود النافع. وأما

= مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال :
«تعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ، ومن أجل غيرة الله حرم الله الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبَّ إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك بعث المنذرين والمبشرين ، ولا أحد أحبُّ إليه المدحة من الله ، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة ».
وقد رواه البخاري (١٣/ ٣٣٧) في التوحيد ، وأخرجه تعليقاً في النكاح (٩/ ٢٧٩) باب الغيرة ، ومسلم (١٤٩٩) في اللعان ، ورواه أحمد في المسند (٤/ ٢٤٨) والبغوي في شرح السنة (٢٣٧٢) عن المغيرة ، ورواه أبو داود الطيالسي (٢٦٦٧) من حديث عباد بن منصور .

(١) سورة المرسلات : ٥ ـ ٦ .

(٢) يتنصل : يتبرأ .

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٤٣٣٨) وابن أبي عاصم في الزهد (٤٧) ، وابن أبي شيبة ، وأبو يعلى (المطالب العالية : ٣١٢٥) وقال العجلوني في (كشف الخفاء : ٢٤٠٨) :
روى الديلمي في حديث رفعه: « من اعتذر إلى الله قبل الله معذرته » .
ومما ترويه الناس:

إذا اعتذر المسيء إليك يوماً ... تجاوز عن مساويه الكثيرة
لأن الشافعي روى حديثاً ... بإسناد عن الحبر المغيره
عن المختار أن الله يمحو ... بعذر واحد ألفي كبيره=

الاعتذار بالقَدر : فهو مخاصمة الله ، واحتجاج من العبد على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار ، وهذا فعل خصماء الله ، كما قال بعض شيوخهم في قول الله تعالى :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾ (١) .

قال : أتدرون ما المراد بهذه الآية؟ قالوا : ما المراد بها؟ قال : إقامة أعذار الخليقة . وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه ، وإنما المراد بها : التزهيد في هذا الفاني الذاهب ، والترغيب في الباقي الدائم ، والإزراء بمن آثر هذا المزيَّن واتبعه ، بمنزلة الصبي الذي يزين له ما يلعب به ، فيهشّ إليه ، ويتحرك له ، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين ، فلم يقل (زيّنا للناس) ، والله تعالى : يضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين ، كما قال تعالى : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ (٣) .

وفي الحديث : « بعثت هادياً وداعياً ، وليس إليّ من الهداية شيءٌ ، وبعث إبليس مغوياً ومزيناً ، وليس إليه من الضلالة شيء » (٤) .

= لكن قيل أن هذا الحديث المنتظم كذب كنسبته للشافعي.

(١) سورة آل عمران : ١٤ .

(٢) سورة الأنعام : ٤٣ .

(٣) سورة الأنعام : ١٣٧ .

(٤) رواه ابن عدي والعقيلي عن عمر رضي الله عنه (كنز العمال : ١/٥٤٦).
وقال العقيلي في فيض القدير (٣/ ٣١٥٣) :
رواه العقيلي عن محمد بن زكريا البلخي عن عيسى بن أحمد البلخي ، عن =

ولا يناقض هذا قول الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ (١) .

فإن إضافة التزيين إليه قضاء وقدراً ، وإلى الشيطان تسبباً ، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زيّنه الشيطان لهم ، فمن عقوبة السيئة : السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة : الحسنة بعدها .

والمقصود : أن الاحتجاج بالقدر مناف للتوبة ، وليس هو من الاعتذار في شيء ، وفي بعض الآثار : « إن العبد إذا أذنب ، فقال : يا رب ، هذا قضاؤك وأنت حكمت علي ، وأنت كتبت عليّ ، يقول الله عز وجل : وأنت عملت ، وأنت كسبت ، وأنت أردت وأنت اجتهدت ، وأنا أعاقبك عليه ، وإذا قال : يا رب ، أنا ظلمت ، وأنا أخطأت ، وأنا اعتديت ، وأنا فعلت ، يقول الله عز وجل : وأنا قدرت عليك وقضيت وكتبت ، أنا أغفر لك ، وإذا عمل حسنة ، فقال : يا رب أنا عملتها ، وأنا تصدّقت وأنا صليت وأنا أطعمت ، يقول الله عز وجل : وأنا أعنتك ، وأنا وفقتك ، وإذا قال : يا رب أنت أعنتني ووفقتني ، وأنت منَنْتَ عليّ ، يقول الله : وأنت عملتها ، وأنت أردتها ، وأنت كسبتها » .

فالاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافي الاعتراف ، فذلك منافٍ للتوبة ، واعتذار يقرر الاعتراف فذلك من تمام التوبة .

= إسحاق بن الفرات ، عن خالد بن عبد الرحمن بن الهيثمي ، عن سماك عن طارق ، عن عمر، ثم قال مخرجه العقيلي : خالد ليس بمعروف بالنقل ، وحديثه غير محفوظ ولا يعرف له أصل .
وقال ابن عدي : في قلبي من هذا الحديث شيء، ولا أدري سمع خالد من سماك أم لا ؟ ولا شك أن خالداً هذا هو الخراساني فالحديث مرسل عن سماك .
كما أورد الحديث ابن الجوزي في الموضوعات .

(١) سورة الأنعام : ١٠٨ .

حقـــائق التوبـــة :

قال صاحب المنازل : (وحقائق التوبة ثلاثة أشياء : تعظيم الجناية ، واتهام التوبة ، وطلب أعذار الخليقة) .

يريد بالحقائق : ما يتحقق به الشيء ، وتتبين به صحته وثبوته ، كما قال النبي ﷺ لحارثة : « إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك؟ » [1] .

فأما تعظيم الجناية : فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها ، وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها ، فإن من استهان بإضاعة فلس ـ مثلاً ـ لم يندم على إضاعته ، فإذا علم أنه دينار اشتدَّ ندمُه، وعظمت إضاعتُه عنده .

---

(١) هذا القول قاله رسول الله ﷺ للصحابي حارث بن مالك ، وقيل للحارثة بن النعمان : والحديث رواه ابن المبارك في الزهد (١٠٦) عن معمر ، عن صالح بن مسمار أن النبي ﷺ قال :
« يا حارث بن مالك ، كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : إن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أسمع عواء أهل النار ، فقال : مؤمن نوّر الله قلبه » .
ورواه البزار كما في مجمع الزوائد (١/ ٥٧) وقال الهيثمي : فيه يوسف بن عطية لا يحتج به .
ورواه الطبراني في الكبير (مجمع الزوائد : ١/ ٥٧) وفيه ابن لهيعة ، وفيه من يحتاج إلى كشف عنه .
ورواه أبو نعيم وابن عساكر والعسكري في الأمثال وابن النجار ، كما في كنز العمال (١٣/ ٣٦٩٨٨ ـ ٣٦٩٨٩ ـ ٣٦٩٩٠ ـ ٣٦٩٩١) .
وقال ابن حجر في الإصابة(١/ ٢٨٩): رواه ابن المبارك في التفسير ، وابن منده ، والبيهقي في الشعب .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء : تعظيم الآمر ، وتعظيم الأمر ، والتصديق بالجزاء .

وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه ، لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه ، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده في صحتها ، وأنها توبة علّة وهو لا يشعر بها ، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله ، فتاب للحال ، لا خوفاً من ذي الجلال ، أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد في تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعي المعصية في قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفاً من الله وتعظيماً له ولحرماته ، وإجلالاً له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده ، وعن العبد والطرد عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة ، فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون .

ومن اتهامه التوبة أيضاً : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفَيْنة بعد الفَيْنة ، وتذكر حلاوة مواقعته ، فربما تنفس ، وربما هاج هائجه .

ومن اتهام التوبة : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أعطي منشوراً بالأمان ، فهذا من علامات التهمة .

ومن علاماتها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وألاَّ يستحدث بعد التوبة أعمالاً صالحة لم تكن له قبل الخطيئة .

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات ، منها : أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

ومنها : ألاَّ يزال الخوف مصاحباً له، لا يأمن مكر الله طرفة عين ، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه :

﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١)

فهناك يزول الخوف .

ومنها انخلاع قلبه ، وتقطعه ندماً وخوفاً ، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة (٢) لقوله تعالى :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣) .

قال: تقطعها بالتوبة ، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وهذا هو تقطعه ، وهذا حقيقة التوبة ، لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه وخوفاً ، تقطع في الآخرة إذا حقَّت الحقائق ، وعاين فيه ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين ، فلا بد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة .

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً : كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ، ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل بجوع ، ولا رياضة، ولاحب مجرد ، وإنما هي أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب

---

(١) سورة فصلت : /٣٠/ .

(٢) هو سفيان بن عيينة بن ميمون ، أبو محمد الكوفي : محدث بالحرم المكي ، من الموالي ، ولد بالكوفة ، وسكن مكة وتوفي بها . كان حافظاً ثقة ، واسع العلم كبير القدر . قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز . وحج سبعين سنة . وانتهى إليه علو الإسناد ورُحل إليه من البلاد ، له كتاب « الجامع في الحديث وكتاب التفسير » توفي سنة ١٩٨هـ . « حلية الأولياء : ٧/ ٢٧٠ » ، « تاريخ بغداد : ٩/ ١٧٤ » ، « تهذيب التهذيب : ٤/ ١١٧ » ، « الأعلام : ٣/ ١٠٥ » .

(٣) سورة التوبة : /١١٠/ .

بين يدي الرب كسرة تامة ، قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً ، كحال عبد جانٍ آبق من سيده [1] ، فأخذ فأحضر بين يديه ، ولم يجد من ينجيه من سطوته ، ولم يجد بداً ولا عنه غناء ، ولا منه مهرباً ، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه ، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته ، هذا مع حبه لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده ، وذله وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها للعبد ، وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جَبْره بها ، وما أقربه بها من سيده! فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة ، والخضوع والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين يديه ، والاستسلام له ، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال :

« أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني ، أسألك بقوتك وضعفي ، وبغناك عني وفقري إليك ، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواي كثير ، وليس لي سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت له رقبته ، ورَغِمَ لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ لك قلبه » .

يا من ألوذ به فيما أؤمّله ... ومن أعوذ به مما أحاذره
لايَجْبُرُ الناسُ عظماً أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة ، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها ، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة ،

---

(١) آبق : هارب .

وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الصحيحة الخالصة الصادقة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات : في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها ـ ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها ـ فعندهم ـ من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم ، وصول طاعتهم ، ومنّتهم على الخلق بلسان الحال ، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم اقتضاء لا يخفىٰ على أحد غيرهم ، وتوابع ذلك ما هو أبغض إلى الله ، وأبعدُ لهم عن بابه من كبائر أولئك ، فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة كبيرة يوقعه فيها ، ليكسر بها نفسه ، ويُعرفه قدره ، ويذله بها ، ويخرج بها صَوْلة الطاعة من قلبه ، فهي رحمة في حقه ، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح ، وإقبال بقلوبهم إليه ، فهو رحمة في حقهم ، وإلا فكلاهما على خطر .

أعـذار الخـليقة ما بين محمـود ومذمـوم :

وأما طلب أعذار الخليقة : فهذا له وجهان ، وجه محمود ، ووجه مذموم حرام ، فالمذموم : أن تطلب أعذارهم ، نظراً إلى الحكم القدَري ، وجريانه عليهم ، شاؤوا أم أبوا ، فتعذرهم بالقدر ، وهذا القدر ينتهي إليه كثير من السالكين ، الناظرين إلى القَدَر ، الفانين في شهوده ، وهذا دربٌ خطير جداً ، قليل المنفعة ، لا ينجي وحده .

وأظن هذا مراد صاحب المنازل ، لأنه قال بعد ذلك :

(مشاهدة العبد الحكم لم يدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحكم) .

وهذا الشهود شهود ناقص مذموم ، إن طرده صاحبه ، فعَذَرَ أعداء الله ، وأهل مخالفته ومخالفة رسله ، وطلب أعذارهم كان مضاداً لله في أمره ، عاذراً من لم يعذره الله ، طالباً عذر من لامَهُ الله وأمر بلومه ، وليس

هذه موافقة الله عز وجل ، بل موافقته لوم هذا ، واعتقاد أنه لا عذر له عند الله ، ولا في نفس الأمر ، فالله عز وجل قد أعذر إليه ، وأزال عذره بالكلية ، ولو كان معذوراً في نفس الأمر عند الله لما عاقبه البتة ، فإن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر ، فلا أحد أحب إليه العذر من الله ، ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب ، إزالة لأعذار خلقه ، لئلا يكون لهم عليه حجة . ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححه مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه ، فلله الحجة البالغة ، ومن له عذر من خلقه ـ كالطفل الذي لا يميز ، والمعتوه ، ومن لم تبلغه الدعوة ، والأصمّ والأعمى الذي لا يبصر ولا يسمع ـ فإن الله لا يعذب هؤلاء البتة بلا ذنب ، وله فيهم حكم آخر في المعاد ، يمتحنهم بأن يرسل إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم ، فمن أطاع الرسول منهم ، أدخله الجنة ومن عصاه أدخله النار ، حكى ذلك أبو الحسن الأشعري [1] عن أهل السنة والحديث في مقالاته ، وفيه عدة أحاديث بعضها في مسند أحمد ، كحديث الأسود بن سريع ، وحديث أبي هريرة ، ومن طعن في هذه الأحاديث بأن الآخرة دار جزاء ودار تكليف : هذه الأحاديث مخالفة

---

(١) أبو الحسن الأشعري ، علي بن إسماعيل بن إسحاق : من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسس مذهب الأشاعرة ، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين ، ولد في البصرة ، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ، ثم رجع وجاهر بخلافهم ، وتوفي ببغداد عام (٣٢٤هـ) وقد قيل : بلغت مصنفاته ثلاثمئة كتاب منها « إمامة الصديق » و « الرد على المجسمة » و« مقالات الإسلاميين » و« الإبانة عن أصول الديانة » و« رسالة في الإيمان » و« مقالات الملحدين » و« خلق الأعمال » و« استحسان الخوض في الكلام » و« الأسماء والأحكام » و« اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع » انظر: « تاريخ بغداد : ١١/٣٤٦ » ، « سير أعلام النبلاء : ١٥/٨٥ » ، « طبقات الشافعية : ٣/٣٤٧ » ، « الأعلام : ٤/٢٦٣ » .

للعقل ، فهو جاهل ، فإن التكليف إنما ينقطع بدخول دار القرار الجنة أو النار ، وإلا فالتكليف واقع في البرزخ وفي العرصات [1] ، ولهذا يدعوهم إلى السجود له في الموقف ، فيسجد المؤمنون له طوعاً واختياراً ، ويحال بين الكفار والمنافقين وبين السجود .

والمقصود : أنه لا عذر لأحد البتة في معصية الله ومخالفة أمره ، مع علمه بذلك ، وتمكنه من الفعل والترك ، ولو كان له عذر لما استحقت العقوبة واللوم لا في الدنيا ولا في العقبى .

فإن قيل : هذا كلام بلسان الحال بالشرع ، ولو نطقت بلسان الحقيقة ، لعذرت الخليقة : إذ هم صائرون إلى مشيئة الله فيهم ، وما قضاه وقدره عليهم ولا بد . فهم مَجار لأقداره ، وسهامها نافذة فيهم ، وهم أغراض لسهام الأقدار لا تخطئهم البتة ، ولكن من غلب عليه مشاهدة الحكم الكوني عذَرَهم ، فأنت معذور في الإنكار علينا بحقيقة الشرع ، ونحن معذورون في طلب العذر بحقيقة الحكم وكلانا مصيب .

فالجـــواب من وجـــوه :

أحدها : أن يقال : العذر إن لم يكن مقبولاً لم يكن نافعاً ، والاعتذار بالقدر غير مقبول ، ولا يعذر أحد به ، ولو اعتذر ، فهو كلام باطل ، لا يفيد شيئاً البتة ، بل يزيد في ذنب الجاني ، ويغضب الرب عليه ، وما هذا شأنه لا يشتغل به عاقل .

الثاني : أن الاعتذار بالقدر يتضمن تنزيه الجاني نفسه ، وتنزيه ساحته ، وهو الظالم الجاهل ، والجهل على القدر نسبة الذنب إليه ، وتظليمه بلسان الحال والقال ، بتحـــين العبارة وتلطيفها ، وربما غلبه

---

(١) العرصات : الساحات ، والبقع الواسعة التي ليس فيها بناء .

الحال ، فصرح بالوجد كما قال بعض خصماء الله [1]:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له ... إياك إياك أن تبتلَّ بالماء!

وقال خصم آخر :

وضعوا اللحم للبُزا ... ة على ذروتَي عَدَنْ [2]

ثم لاموا البُزاة أن ... خَلَعوا عنهم الرسَنْ

لو أرادوا صيانتي ... ستروا وجهك الحسن !!

وقال خصم آخر :

أصبحت منفعلاً لما تختاره ... مني ، ففعلي كله طاعات

وقال خصم آخر شاكياً متظلماً :

إذا كان المحب قليل حظ ... فما حسناته إلا ذنوب

---

(١) قال في هامش الأصل : هذا الخصم هو الحسين بن منصور الحلاج . والحلاج : فيلسوف يعد تارة في كبار المتعبدين والزهاد ، وتارة في زمرة الملحدين ، أصله من بيضاء فارس ، ونشأ بواسط وانتقل إلى البصرة ، وحج ودخل إلى بغداد وعاد إلى تستر ، وظهر أمره سنة (٢٩٩ هـ) فاتبع بعض الناس طريقته في التوحيد والإيمان ، ثم كان يتنقل في البلدان وينشر طريقته سراً ، وقالوا : إنه كان يأكل يسيراً ويصلي كثيراً ويصوم الدهر ، وإنه كان يظهر مظهر الشيعة للملوك (العباسيين) ومذهب الصوفية للعامة ، وهو في تضاعيف ذلك يدعي حلول الألوهية فيه ، وكثرت الوشايات به إلى المقتدر العباسي فأمر بالقبض عليه ، فسجن وعذب وضرب وهو صابر لا يتأوه ولا يستغيث ، قال ابن خلكان : وقطعت أطرافه الأربعة ، ثم خرَّ رأسه وأحرقت جثته ، ولما صارت رماداً ألقيت في دجلة عام(٣٠٩هـ) . « طبقات الصوفية : ٣٠٧ » ، « تاريخ بغداد : ٨/ ١١٢ » ، « وفيات الأعيان : ٢/ ١٤٠ » ، « سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١٣»، «الأعلام: ٢/ ٢٦٠» .

(٢) البزاة : جمع البازي . وهو طائر معروف. وعدن : مدينة يمنية مشهورة .

وقال خصم آخر معتذراً عن إبليس : لما عصى من كان إبليسه؟ .

ولخصماء الله ههنا تظلمات وشكايات ، ولو فتشوا زوايا قلوبهم لوجدوا هناك خصماً متظلماً شاكياً عاتباً ، يقول : لا أقدر أن أقول شيئاً ، وإني مظلوم في صورة ظالم ، ويقول بحرقة ، ويتنفس الصعداء : مسكين ابن آدم ، لا قادر ولا معذور !! .

وقال الآخر : ابن آدم كُرة تحت صولجانات الأقدار ، يضربها واحد ، ويردها الآخر ، وهل تستطيع الكرة الانتصاف من الصولجان ؟ .

ويتمثل خصم آخر بقول الشاعر :

بأبي أنت وإن أسـ ـرفت في هجري وظلمي

فجعله هاجراً ظالماً ، بل مسرفاً ، قد تجاوز الحد في ظلمه ، ويقول آخر :

أظلّت علينا منك يوماً سحابة أضاءت لنا برقاً ، وأبطا رشاشها

فلا غيمها يجلو ، فييئس طالب ولا غيثها يأتي ، فيروي عطاشها

ويقول آخر :

يدنو إليك ونقص الحظ يبعده ويستقيم وداعي البين يلويه

ويقول خصم آخر :

واقف في الماء ظمآ ن ، ولكن ليس يُسقَى

ومن له أدنى فهم وبصيرة يعلم أن هذا كله تظلم وشكاية وعتب ، ويكاد أحدهم يقول : يا ظالمي لولا ، ولو فتش نفسه كما ينبغي لوجد ذلك فيها وهذا ما لا غاية بعده من الجهل والظلم ، والإنسان كما قال الله تعالىٰ :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [1] .

﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [2] .

ولو علم هذا الظالم أن بلاءه من نفسه ومصابه منها ، وأنها أولى بكل ذم وظلم ، وأنها مأوى كل سوء :

و﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [3] قال ابن عباس [4] ، ومجاهد [5] ، وقتادة [6] : كفورٌ جحودٌ لنعم الله . وقال

---

(١) سورة الأحزاب : / ٧٢/ .

(٢) سورة فاطر : / ١٥/ .

(٣) سورة العاديات : / ٦/ .

(٤) هو الصحابي الجليل : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب : حبر الأمة ولد بمكة ونشأ في بدء عصر النبوة ، فلازم رسول الله ﷺ وروى عنه الأحاديث الصحيحة وشهد مع علي الجمل وصفين ، وكف بصره في آخر عمره ، فسكن الطائف وتوفي بها عام(٦٨هـ) « طبقات ابن سعد : ٢/ ٣٦٥ » ، « الإصابة : ٢/ ٣٣٠ » ، « سير أعلام النبلاء : ٣/ ٣٣١ » ، « الأعلام : ٤/ ٩٥ » .

(٥) مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي : تابعي مفسر من أهل مكة ، قال الذهبي : شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس ، قرأه عليه ثلاث مرات ، يقف عند كل آية يسأله : فيم نزلت ، وكيف كانت؟ وتنقل في الأسفار ، واستقر في الكوفة ، وكتابه في « التفسير » يتقيه المفسرون لأنه كان يسأل أهل الكتاب . توفي سنة(١٠٤هـ) . « طبقات ابن سعد : ٥/ ٤٦٦ » ، « سير أعلام النبلاء : ٤/ ٤٤٩ » ، « تهذيب التهذيب : ١٠/ ٤٢ » ، « الأعلام : ٥/ ٢٧٨ » .

(٦) قتادة بن دعامة الدوسي ، أبو الخطاب البصري : مفسر حافظ ضرير أكمه ، قال الإمام أحمد بن حنبل : قتادة أحفظ أهل البصرة ، وكان مع علمه بالحديث رأساً باللغة العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب ، وهو حجة بالإجماع إذا بيَّن السماع ، فإنه مدلس معروف بذلك ، وكان =

الحسن[1] : (هو الذي يعد المصائب وينسى النعم) . وقال أبو عبيدة [2] : (هو قليل الخير) والأرض الكنود : التي لا نبت فيها ، وقيل : التي لا تنبت شيئاً من المنافع ، وقال الفضل بن عباس [3] :

= يرى القدر ، مات بواسط في الطاعون سنة(١١٨هـ) . « الجرح والتعديل : ٧/ ١٣٣ » ، « سير أعلام النبلاء : ٥/ ٢٦٩ » ، « تهذيب التهذيب : ٨/ ٣٥١ » ، « الأعلام : ٥/ ١٨٩ » .

(١) الحسن بن يسار البصري ، أبو سعيد : تابعي كان إمام أهل البصرة ، وهو حبر الأمة في زمنه وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء النساك الشجعان ، ولد بالمدينة وشب في كنف علي بن أبي طالب، كانت له هيبة عظيمة عند الولاة ، وكان غاية في الفصاحة توفي (١١٠هـ) « طبقات ابن سعد : ٧/ ١٥٦ » ، « حلية الأولياء : ٢/ ١٣١ » ، « سير أعلام النبلاء : ٤/ ٥٦٣ » ، « الأعلام : ٢/ ٢٢٦ » .

(٢) أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي البصري ، أبو عبيدة النحوي : من أئمة اللغة والأدب مولده ووفاته في البصرة ، استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة (١٨٨هـ) وقرأ عليه أشياء من كتبه ، وكان إباضياً ، من حفاظ الحديث من كتبه « مجاز في القرآن » و« الشوارد » توفي (٢٠٩هـ) . « معجم الأدباء :٩/ ١٥٤ » ،« سير أعلام النبلاء :٩/ ٤٤٥»، « تهذيب التهذيب : ١٠/ ٢٤٦ » ، « الأعلام : ٧/ ٢٧٢ » .

(٣) لعله الفضل بن عباس الرازي المعروف بفضلك الصائغ :
قال عنه الذهبي : الإمام الحافظ المحقق ، صاحب التصانيف قيل إن أهل شيراز أخرجوه من بلادهم عندما علموا أنه يقول : إن الإيمان مخلوق ، وقال الخطيب البغدادي : كان ثقة ثبتاً. وقال شعيب بن إبراهيم البيهقي : فضلك الرازي إمام عصره في معرفة الحديث . توفي سنة (٢٧٠هـ) . « تاريخ بغداد : ١٢/ ٣٦٧ » ، « سير أعلام النبلاء : ١٢/ ٦٣٠ » ، « تذكرة الحفاظ : ٢/ ٦٠٠ » ، « شذرات الذهب : ٢/ ١٦٠ » .

الكنود الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان . ولو علم هذا الظالم الجاهل : أنه هو القاعد على طريقة مصالحه يقطعها عن الوصول إليه ، فهو الحجر في طريق الماء الذي به حياته ، وهو السَّكْر الذي قد سدَّ مجرى الماء إلى بستان قلبه ، ويستغيث مع ذلك : العطش العطشَ ، وقد وقف في طريق الماء ومنع وصوله إليه ، فهو حجاب قلبه عن سر غيبه ، وهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب ، فما عليه أضر منه ، ولا له أعداء أبلغ في نكايته وعداوته منه .

ما تبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه

فتباً له ظالماً في صورة مظلوم ، وشاكياً والجناية منه ، قد جدَّ في الإعراض وهو ينادي : طردوني وأبعدوني ، ولَّىٰ ظهره الباب ، بل أغلقه على نفسه وأضاع مفاتيحه وكسرها ويقول : دعاني ، وسدَّ الباب دوني ، فهل إلى دخولي سبيل ، بينوا لي قصتي! يأخذ الشفيق بحُجْزته عن النار وهو يجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمها ، ويستغيث : ما حيلتي؟ وقد قدَّموني إلى الحُفيرة وقذفوني فيها ، والله كم صاح به الناصح : الحذَر الحذر ، إياك إياك ، وكم أمسك بثوبه ، وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبىٰ إلا الاقتحام :

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحة وقد يستفيد الظِّنَّةَ المتنصح

يا ويله ظهيراً للشيطان على ربه، خصماً لله مع نفسه، جبريّ [1]

---

(١) الجبرية : طائفة ظهرت في القرن الأول الهجري ، على رأسها جهم بن صفوان ، تسمى أيضاً الجهمية ضد القدرية ، يقولون : إن الإنسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة ، وإن الله قدر الأعمال أزلاً وخلقها ، وإن الإيمان محله القلب ، وإن كلام الله حادث ، وينفون عن الله كل وصف يجوز إطلاقه على غيره ، كالوجود والحياة والعلم ، وجوزوا وصفه فقط بما =

المعاصي، قدري[1] الطاعات ، عاجز الرأي مضياع لفرصته ، قاعد عن مصالحه ، معاتب لأقدار ربه ، يحتج على ربه بما لا يقبله من عبده وامرأته وأمته ، إذا احتجوا به عليه في التهاون في بعض أمره ، فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه ، أو نهاه عن شيء فارتكبه ، وقال : القدر ساقني إلى ذلك ، لما قَبِلَ منه هذه الحجة ، ولبادر إلىٰ عقوبته .

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك ، فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقك؟ بل إذا أساء إليك مسيء ، وجنىٰ عليك جان ، واحتج بالقدر : لاشتدَّ غضبك عليه ، وتضاعف جُرمه عندك ، ورأيت حجته داحضة ، ثم تحتج على ربك به ، وتراه عذراً لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟؟ .

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مدى الأنفاس : أزاح عللك ، ومكّنك من التزود إلى جنَّته ، وبعث إليك الدليل ، وأعطاك مؤنة السفر ، وما تتزود به ، وما تحارب به قطاع الطريق عليك ، فأعطاك السمع والبصر والفؤاد ، وعرَّفك الخير والشر ، والنافع والضار ، وأرسل إليك رسوله ، وأنزل إليك كتابه ، ويسَّره للذكر والفهم والعمل ، وأعانك بمدد من جنده الكرام ، يثبتونك ويحرسونك ، ويحاربون عدوك ويطردونه عنك ، ويريدون منك ألا تميل إليه ، ولا تصالحه ، وهم يكفونك

= يختص به من صفات الأفعال كالخلق ، (الموسوعة العربية الميسرة : ٦١٢ و٦٥٤) .

(١) القَدَرية : جماعة من التابعين قالوا بحرية الإرادة وقدرة الإنسان على أعماله ، رددوا هذا في الشام والعراق ، وكان على رأسهم معبد الجهني ، وغيلان الدمشقي ، وهي ضد الجبرية ، مهدوا للمعتزلة وتلاشوا فيهم ، يسمى المعتزلة أحياناً القدرية . (الموسوعة العربية الميسرة : ١٣٧١) .

مؤنته ، وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم ، وموالاته دونهم ، بل تظاهره وتواليه دون وليّك الحق الذي هو أولى بك ، قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۖ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ (١)

طرد إبليس عن سمائه ، وأخرجه من جنته ، وأبعده من قربه ، إذ لم يسجد لك ، وأنت في صُلْب أبيك آدم ـ عليه السلام ـ لكرامتك عليه ، فعاداه وأبعده ، ثم واليت عدوه ، وملت إليه وصالحته ، وتتظلم مع ذلك وتشتكي الطرد والإبعاد ، وتقول :

عودوني الوصال، والوصلُ عذْب ورموني بالصدّ ، والصدّ صعب

نعم ، وكيف لا يُطرد من هذه معاملته؟ وكيف لا يبعد عنه من كان هذا وصفه؟ وكيف يجعل من خاصَّته وأهل قربه مَنْ حاله معه هكذا؟ قد أفسد ما بينه وبين الله وكدّره .

أمره الله بشكره ، لا لحاجة إليه ، ولكن لينال به المزيد من فضله ، فجعل كفر نعمه والاستعانة بها على مساخطه : من أكبر أسباب صرفها عنه .

وأمره بذكر ليذكره بإحسانه ، فجعل نسيانه سبباً لنسيان الله له :

﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ (٢) ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الكهف : / ٥٠/ .

(٢) سورة الحشر : / ١٩/ ، ونصها : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

(٣) سورة التوبة : / ٦٧/ ونصها : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ .

أمره بسؤاله ليعطيه ، فلم يسأله ، بل أعطاه أجلّ العطايا بلا سؤال ، فلم يقبل ، يشكو مَنْ يرحمه إلى من لا يرحمه ، ويتظلم ممن لا يظلمه ، ويَدَعُ من يعاديه ويظلمه ، إن أنعم عليه بالصحة والعافية والمال والجاه استعان بنعمه على معاصيه ، وإن سلبه ذلك ظلَّ متسخِّطاً علىٰ ربه وهو شاكيه، لا يصلح له علىٰ عافية ، ولا علىٰ ابتلاء ، العافية تُلقيه إلى مساخطه ، والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته ، وشكايته إلى خلقه .

دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طرقه ، ثم فتحه له فما عرّج عليه ولا وَلَجه ، أرسل إليه رسوله يدعوه إلى دار كرامته ، فعصىٰ الرسول ، وقال : لا أبيع ناجزاً بغائب ، ونقداً بنسيئة ، ولا أترك ما أراه لشيء سمعت به ، ويقول :

خُذ ما رأيت ، ودعْ شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زُحَل

فإن وافق حظه طاعة الرسول أطاعه لنيل حظه ، لا لرضا مرسله ، لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه ، حتىٰ أعرض عنه ، وأغلق الباب في وجهه .

ومع هذا فلم يؤيسه من رحمته ، بل قال : متى جئتني قبلتك ، إن أتيتني ليلاً قبلتك ، وإن أتيتني نهاراً قبلتك ، وإن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعاً ، وإن تقربت مني ذراعاً تقربت منك باعاً ، وإن مشيت إليّ هرولتُ إليك ، ولو لقيتني بقُراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، أتيتك بقُرابها مغفرة ، ولو بلغتْ ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرتُ لك ، ومَنْ أعظم مني جوداً وكرماً؟ عبادي يبارزوني بالعظائم ، وأنا أكلؤهم على فرشهم ، إني والجن والإنس في نبأ عظيم : أخلقُ ويُعبَد غيري ، وأرزقُ ويُشكرُ سواي ، خيري إلى العباد نازل وشرهم إليَّ صاعد ، أتحبَّبُ إليهم بنعمي ، وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إليّ بالمعاصي ، وهم أفقر شيء إليّ .

من أقبل إليّ تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني ناديته من قريب ، ومن تركَ

لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن أراد رضاي أردت ما يريد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد .

أهل ذكري أهل مجالستي ، وأهل شكري أهل زيارتي ، وأهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا أقنّطهم من رحمتي ، إن تابوا إليّ فأنا حبيبهم ، فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا إليّ فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب ، من آثرني علىٰ سواي آثرته على سواه ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها إلى سبعمئة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة عندي بواحدة ، فإن ندم عليها واستغفرني غفرتها له .

أشكر اليسير من العمل ، وأغفر الكثير من الزلل ، رحمتي سبقت غضبي ، وحلمي سبق مؤاخذتي ، وعفوي سبق عقوبتي ، أنا أرحم بعبادي من الوالدة بولدها «لله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجلٍ أضلَّ راحلته بأرض مهلكة دوِّية عليها طعامُهُ وشرابه ، فطلبها حتى إذا أيس من حصولها ، نام في أصل شجرة ينتظر الموت ، فاستيقظَ فإذا هي على رأسِهِ ، قد تعلّقَ خطامها بالشجرة ، فالله أفرحُ بتوبةِ عبدهِ من هذا براحلتِهِ »[1] .

---

(١) رواه البخاري (١١ ، ٨٨ ، ٨٩) في الدعوات ، ومسلم (٢٧٤٤) في التوبة ، باب الحض على التوبة ، والترمذي (٢٤٩٩) و(٢٥٠٠) في صفة القيامة ، باب المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه ، عن الحارث بن سويد ، ورواه أحمد في المسند (١/ ٣٨٣) ، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٤٢) وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي ، والعجب من استدراك الحاكم على حديث خرَّجه الشيخان ، ورواه البغوي في شرح السنة (١٣٠٢) عن الحارث بن سويد . والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٨١) ، وفي الأربعون الصغرى (٨) ومعنى دَوِّية : الفلاة والمفازة . . خطامها : زمامها .

وهذه فرحة إحسان وبر ولطف ، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده ، منتفع بها ، وكذلك موالاته لعبده إحساناً إليه ، ومحبة له وبراً به ، لا يتكثَّر به من قلة ، ولا يتعزز به من ذلّة ، وَلا ينتصر به من غَلَبة ، ولا يَعُدُّه لنائبة ، ولا يستعين به في أمر :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (١) .

فنفىٰ أن يكون له وليٌّ من الذل ، والله وليُّ الذين آمنوا ، وهم أولياؤه ، فهذا شأن الرب وشأن العبد ، وهم يقيمون أعذار أنفسهم ، ويحمِّلون ذنوبهم على أقداره :

استأثر الله بالمحامد والمجـ ـد ، وولّىٰ الملامة الرجلا

وما أحسن قول القائل :

تطوي المراحل عن حبيبك دائباً وتظلُّ تبكيه بدمع ساجم
كذَبَتْكَ نفسك ، لست من أحبابه تشكو البعاد ، وأنت عين الظالم

إذاً : طلب أعذارهم في الجناية عائد على التوبة بالنقض والإبطال .

المعنىٰ الثاني لأعذار الخليقة :

أن يكون مراده : إقامة أعذارهم في إساءتهم إليك ، وجنايتهم عليك ، والنظر في ذلك إلىٰ الأقدار ، وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار ، فتعذرهم بالقدر في حقك ، لا في حق ربك ، فهذا حق ، وهو شأن السادات العارفين ، وخواص أولياء الله الكمل ، يفنىٰ أحدُهم عن حقه ، ويستوفي حق ربه ، ينظر في التفريط في حقه ، وفي الجناية عليه إلى القدر ، وينظر في حق الله إلى الأمر ، فيطلب لهم العذر في حقه ، ويمحو عنهم العذر ويطلبه في حق الله .

---

(١) سورة الإسراء : /١١١/ .

وهذه كانت حال نبينا ﷺ ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : (ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، ولا نيل منه شيء فانتقم لنفسه إلا أن تُنتهك محارم الله ، فإذا انتهكت محارم الله لم يقُم لغضبه شيء ، حتىٰ ينتقم لله) [1] . وقالت عائشة رضي الله عنها أيضاً : (ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً ولا دابة ، ولا شيئاً قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله) . وقال أنس [2] رضي الله عنه . (خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء صنعته : لِمَ صنعته؟ ولا لشيء لمْ أصنعه لِمَ لَمْ تصنعه؟ وكان إذا عاتبني بعض أهله يقول : دعه ، فلو قُضي شيء لكان) [3] .

فانظر إلى نظره إلى القدر عند حقه ، وقيامه بالأمر ، وقطع يد المرأة عند حق الله ، ولم يقل هناك : القدرُ حكمَ عليها .

وكذلك عزمه على تحريق المتخلفين عن الصلاة معه في

---

(١) رواه مسلم (٢٣٢٨) في الفضائل ، باب مباعدته ﷺ للآثام ، وأحمد في المسند (٦/ ٣٢ و٢٨١) وأبو داود (٤٧٨٦) في الآداب ، وهذا لفظ الحديث الثاني ، أما الحديث الأول فقد رووه بألفاظ قريبة ، ورواه البخاري (٦/ ٤١٩) في الأنبياء ، وفي الآداب وفي الحدود ، وفي المحاربين ، ومسلم (٢٣٢٧) في الفضائل ، وأبو داود (٤٧٨٥) في الآداب .

(٢) هو أنس بن مالك بن النضرالأنصاري، أبو ثمامة ، وأبو حمزة : صحابي جليل ، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه ، روى عنه رجال الحديث (٢٢٨٦) حديثاً ، مولده بالمدينة وأسلم صغيراً ، وخدم النبي ﷺ إلى أن قبض ، ثم رحل إلى دمشق ، ومنها إلى البصرة ، فمات فيها سنة (٩٣هـ) . « طبقات ابن سعد : ٧/ ١٧ » ، « الاستيعاب : ١٠٨ » ، « سير أعلام النبلاء : ٣/ ٣٩٥ » ، « الأعلام : ٣/ ٢٤ » .

(٣) رواه البخاري (١٠/ ٣٨٣) في الآداب ، باب حسن الخلق ، ومسلم (٢٣٠٩) في الفضائل ، وأبو داود (٤٧٧٤) ، والترمذي (٢٠١٦) في سننه ، و(٣٣٨) في الشمائل المحمدية .

الجماعة ، ولم يقُل : لو قُضي لهم الصلاة لكانت! .

وكذلك رجمه المرأة والرجل لما زنيا ، ولم يحتجَّ في ذلك لهما بالقدر . وكذلك فعله في العُرَنيِّين الذين قتلوا راعيه ، واستاقوا الذَّود ، وكفروا بعد إسلامهم ، ولم يقل : قدر عليهم ، بل أمر بهم فقُطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسُمِرت أعينهم ، وتركوا في الحَرَّة يستسقون فلا يُسقون حتى ماتوا عطشاً إلى غير ذلك مما يطول بسطه .

وكان رسول الله ﷺ أعرف بالله وبحقه من أن يحتج بالقدر على ترك أمره ، ويقبل الاحتجاج به من أحد ، ومع هذا فعذر أناساً بالقدر في حقه ، وقال « لو قضي لكان » فصلوات الله وسلامه عليه .

فهذا المعنى الثاني ـ وإن كان حقاً ـ لكن ليس هو من شرائط التوبة ، ولا من أركانها ، ولا له تعلق بها ، فإنه لو لم يُقمْ أعذارهم في إساءتهم إليه لما نقض ذلك شيئاً من توبته ، فما أراد إلا المعنى الأول ، وقد عرفتَ ما فيه .

ولا ريب أن صاحب المنازل إنما أراد أن يعذرهم بالقدر ، ويقيم عليهم حكم الأمر ، فينظر بعين القدر ويعذرهم بها ، وينظر بعين الأمر فيحملهم عليها بموجبها ، فلا يحجبه مطالعة الأمر عن القدر ، ولا ملاحظة القدر عن الأمر .

فهذا ـ وإن كان حقاً لا بد منه ـ فلا وجه لعذرهم ، وليس عذرهم من التوبة في شيء البتة ، ولو كان صحيحاً ـ فضلاً عن كونه باطلاً ـ فلا هم معذورون ، ولا طلبُ عذرهم من حقائق التوبة ، بل التخفيف : أن الغيرة لله ، والغضب لله ، من حقائق التوبة ، فتعطيل عذر الخليقة في مخالفة الأمر والنهي ، وشدة الغضب : هو من علامات تعظيم الحرمة ، وذلك بأن يكون من حقائق التوبة أولىٰ من عذر مخالفة الأمر والنهي .

ولا سيما أنه يدخل في هذا : عذر عُبَّاد الأصنام والأوثان ، وقتلة الأنبياء ، وفرعون وهامان ، ونمرود بن كنعان ، وأبو جهل وأصحابه ، وإبليس وجنوده وكل كافر وظالم ، ومتعد حدود الله ، ومنتهك محارم الله ، فإنهم كلهم تحت القدر ، وهم من الخليقة ، أفيكون عذر هؤلاء من حقيقة التوبة؟ .

فهذا مما أوجبه السّير في طريق الفناء في توحيد الربوبية ، وجَعْلُه الغاية التي يشمِّر إليها السالكون .

ثم أي موافقة للمحبوب في عذر من لا يعذره هو؟ بل قد اشتد غضبه عليه ، وأبعده عن قربه ، وطرده عن بابه ، ومقته أشد المقت؟ فإذا عذرته ، فهل يكون عذره إلا تعرضاً لسخط المحبوب ، وسقوطاً من عينه؟

ولا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام [1] إهدار محاسنه ، وإساءة

---

(١) عندما يطلق ابن القيم لفظ « شيخ الإسلام » في كتابه هذا ، فإنما يقصد به الإمام الهروي مؤلف النص الأصلي وهو كتاب « منازل السائرين » . والإمام الهروي ، هو عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي ، أبو إسماعيل : شيخ خراسان في عصره من كبار الحنابلة ، من ذرية أبي أيوب الأنصاري ، كان بارعاً في اللغة ، حافظاً للحديث ، عارفاً بالتاريخ والأنساب ، مظهراً للسنة داعياً إليها ، امتُحن وأوذي وسمع يقول : « عُرضت على السيف خمس مرات ، لا يقال لي ارجع عن مذهبك ، لكن يقال لي : اسكت عمن خالفك ، فأقول لا أسكت » قال عنه المؤتمن الساجي : كان آية في لسان التذكير والتصوف ، من سلاطين العلماء ، وكان يدخل على الأمراء والجبابرة ، فما يبالي ، ويرى الغريب مِنَ المحدِّثين ، فيبالغ في إكرامه . وقال الذهبي : هو رجل أثري لهج بإثبات نصوص الصفات ، منافر للكلام وأهله جداً ، وفي كتابه « منازل السائرين » إشارات إلى المحو والفناء ، وإنما مراده بذلك الفناء هو الغيبة =

الظن به فمحله من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم في طريق السلوك المحل الذي لا يُجهل ، وكل أحد فمأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم صلوات الله عليه وسلامه . والكامل من عُدَّ خطؤه ، ولا سيما في مثل هذا المجال الضنك ، والمعترك الصعب ، الذي زلّت فيه أقدام ، وضلت فيه أفهام ، وافترقت بالسالكين فيه الطرقات ، وأشرفوا ـ إلا أقلهم ـ على أودية الهلكات .

وكيف لا؟ وهو البحر الذي تجري سفينة راكبه في موج كالجبال ، والمعترك الذي تضاءلت لشهوده شجاعة الأبطال ، وتحيَّرت فيه عقول أُلِبَّاء الرجال ، ووصلت الخليقة إلى ساحله يبغون ركوبه .

فمنهم : من وقف مُطْرقاً دهشاً ، لا يستطيع أن يملأ منه عينه ، ولا ينقل عن موقفه قدمه ، قد امتلأ قلبه بعظمة ما شاهد منه ، فقال : الوقوف على الساحل أسلم ، وليس بلبيب من خاطر بنفسه .

ومنهم : من رجع على عقبيه ، لما سمع هديره ، وصوت أمواجه ، ولم يطق نظراً إليه .

ومنهم؛ من رمىٰ بنفسه في لججه ، تخفضه موجة ، وترفعه أخرىٰ .

فهؤلاء الثلاثة على خطر ، إذ الواقف علىٰ الساحل عرضة لوصول الماء تحت قدميه ، والهارب ـ ولو جدّ في الهرب ـ فماله مصير إليه ، والمخاطر ناظر إلىٰ الغرقىٰ كلّ ساعة بعينيه ، وما نجا من الخلف إلا

= عن شهود السوى ، ولم يرد محو السوى في الخارج . من كتبه « ذم الكلام وأهله » و« الفاروق في الصفات » . توفي (٤٨١هـ) . « طبقات الحنابلة : ٢/ ٢٤٧ » ، « سير أعلام النبلاء : ١٨/ ٥٠٣ » « شذرات الذهب : ٣/ ٣٦٥ » ، « الأعلام : ٤/ ١٢٢ » .

الصنف الرابع : وهم الذين انتظروا موافاة سفينة الأمر ، فلما قربت منهم ناداهم الرُّبان :

﴿ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ (١) . فهي سفينة نوح حقاً ، وسفينة من بعده من الرسل ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، فركبوا سفينة الأمر بالقدر ، تجري بهم في تصاريف أمواجه علىٰ حُكم التسليم لمن بيده التصرف في البحار ، فلم يك إلا غَفْوة ، حتىٰ قيل لأرض الدنيا وسمائها : يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على جودي دار القرار . والمتخلفون عن السفينة ـ كقوم نوح ـ أُغرقوا ثم أُحرقوا ، ونودي عليهم على رؤوس العالمين : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (٣) . ثم نودي بلسان الشرع والقدر ، تحقيقاً لتوحيده ، وإثباتاً لحجته وهو أعدل العادلين : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٤) .

ركـــوب سفينـــة القـــدر :

وراكب هذا البحر في سفينة الأمر ، وظيفته : مصادمة أمواج القدر ، ومعارضتها بعضها ببعض ، وإلا هلك ، فيرد القدر بالقدر ، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين ، وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني (٥) : (الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ، إلا

---

(١) سورة هود : / ٤١/ .
(٢) سورة هود : / ٤٤/ .
(٣) سورة هود : / ١٠٢/ .
(٤) سورة الأنعام : / ١٤٩/ .
(٥) عبد القادر بن موسى بن عبد الله ، أبو محمد : محيي الدين الجيلاني ، أو الكيلاني ،أو الجيلي ، مؤسس الطريقة القادرية ، من كبار الزهاد =

أنا . فانفتحت لي فيه رَوْزَنة [1] ، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعاً للقدر ، لا من يكون مستسلماً مع القدر) .

ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف في معادهم؟ والله تعالىٰ أمر أن تُدفع السيئة ـ وهي من قدره ـ بالحسنة ـ وهي من قدره ـ وكذلك الجوع من قدره ، وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره ، ولو استسلم العبد لقدر الجوع ، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل ، حتىٰ مات : مات عاصياً ، وكذلك البرد والحر والعطش ، كلها من أقداره ، وأمر بدفعها بأقدار تضادها والدافع والمدفوع والدفع من قدره .

وقد أفصح النبي ﷺ عن هذا المعنىٰ كل الإفصاح ، إذ قالوا : « يا رسول الله ، أرأيت أدويةً نتداوىٰ بها ، ورُقىً نسترقي بها ، وتقىً نتقي بها ، هل تَرُدُّ من قدر الله شيئاً؟ قال : هي من قدر الله » [2] . وفي

= والمتصوفين ، ولد في جيلان (وراء طبرستان) وانتقل إلى بغداد شاباً سنة (٤٨٨هـ) ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ ، وتفقه وسمع الحديث ، وقرأ الأدب ، واشتهر وكان يأكل من عمل يده ، وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة (٥٢٨هـ) وتوفي بها سنة (٥٦١هـ) من كتبه « الفتح الرباني » و« فتوح الغيب » و« الغنية لطالب طريق الحق » و« الفيوضات الربانية » . «المنتظم : ١٠/ ٢١٩ » ، « سير أعلام النبلاء : ٢٠/ ٤٣٩» ، « شذرات الذهب : ٤/ ١٩٨ » ، «الأعلام : ٤/ ٤٧ » .

(١) روزنة : هي كوة ، أو هي خرق في أعلى السقف ، ويقال للكوة النافذة الروزنة ، وقال بعضهم : هي معربة . (لسان العرب : مادة رزن) .

(٢) رواه الترمذي (٢٠٦٦) في الطب . باب ما جاء في الرقى والأدوية ، من طريق أبي خزامة عن أبيه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، ورواه ابن ماجه في سننه (٣٤٣٧) في الطب . باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له =

الحديث الآخر : « إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض »[1] .

وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله ، أفيحلّ للمسلمين الاستسلام للقدر ، وترك دفعه بقدر مثله ، وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره؟ . وكذلك المعصية ، إذا قُدّرت عليك ، وفعلتها بالقدر ، فادفع موجِبتها بالتوبة النصوح ، وهي من القدر .

دفع القدر بالقدر :

ودفع القدر بالقدر نوعان :

أحدهما : دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه ـ ولما يقع ـ بأسباب أخرىٰ من القدر تقابله ، فيمتنع وقوعه ، كدفع العدو بقتاله ، ودفع الحرّ والبرد ونحوه .

الثاني : دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله ، كدفع قَدَر المرض بقدر التداوي ، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة ، ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان . فهذا شأن العارفين وشأن

= شفاء ، من طريق الزهري عن ابن أبي خزامة عن أبيه ، ورواه أحمد في المسند (٣/ ٤٢١) . ومعنىوتقىً : جمع تقاة ، وأصلها وقاة ، قلبت الواو تاء ، وهو ما يلجأ إليه الناس خوف الأعداء . ومعنى(هي من قدر الله) يعني أنه تعالى قدر الأسباب والمسببات وربط المسببات بالأسباب ، فحصول المسببات عند حصول الأسباب من جملة القدر .

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١/ ٤٩٢) ، والبزار في مسنده (٢١٦٥) ، والطبراني في الأوسط (مجمع الزوائد : ١٠/ ١٤٦) عن عائشة ، وفي مسنده عند البزار والطبراني زكريا بن منظور وهو ضعيف ، وبقية رجاله ثقات . كما رواه البزار(٢١٦٤) عن أبي هريرة ، وفي إسناده إبراهيم بن خثيم، وهو متروك .

الأقدار ، لا الاستسلام لها ، وترك الحركة والحيلة ، فإنه عجز ، والله تعالى يلوم على العجز ، فإذا غُلب العبد ، وضاقت به الحيل ، ولم يبق له مجال ، فهنالك الاستسلام للقدر ، والانطراح كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، وهنا ينفع الفناء في القدر ، علماً وحالاً وشهوداً. وأما في حال القدرة ، وحصول الأسباب ، فالفناء النافع : أن يفنىٰ عن الخلق بحكم الله ، وعن هواه بأمر الله ، وعن إرادته ومحبته بإرادة الله ومحبته ، وعن حَوْله وقوته بحول الله وقوته وإعانته ، فهذا الذي قام بحقيقة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ علماً وحالاً ، وبالله المستعان .

أسرار حقيقة التوبة :

قال صاحب المنازل : (وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة أشياء : تمييز التقيّة من العِزة ، ونسيان الجناية ، والتوبة من التوبة ، لأن التائب داخل في الجميع ، من قوله تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [1] فأمر التائب بالتوبة) .

والمقصود بتمييز التقيّة من العزة : أن يكون المقصود من التوبة تقوىٰ الله ، وهو خوفه وخشيته ، والقيام بأمره ، واجتناب نهيه ، فيعمل بطاعة الله على نور من الله ، يرجو ثواب الله ، ويترك معصية الله على نور من الله ، يخاف عقاب الله ، لا يريد بذلك عز الطاعة ، فإن للطاعة وللتوبة عزاً ظاهراً وباطناً ، فلا يكون مقصوده العزّة ، وإن علم أنها تحصل له بالطاعة والتوبة ، فمن تاب لأجل العزة فتوبته مدخولة ، وفي بعض الآثار : « أوحىٰ الله تعالى إلى نبي من الأنبياء : قل لفلان الزاهد : أما زهدك في الدنيا : فقد تعجَّلتَ به الراحة ، وأما انقطاعك إليّ ، فقد

---

(١) سورة النور: / ٣١/ .